مقال حول التربية الأسرية
التنشئة العاطفية للأطفال في الأسرة السودانية

د.عصمت محمود أحمد *

التمهيد :

هذه ورقة بحثية يراد لها بسط رؤية كلية مرجعية حول التنشئة العاطفية للطفولة، وتقديم قراءة نقدية لواقع تلك التنشئة في المجتمع السوداني في إطار تلك الرؤية الكلية؛ و الورقة في إطارها العام ذات صلة وثيقة بالتربية وفلسفتها، كما انها تمس بأكثر من وجه طائفة من القضايا التي يتناولها علم النفس خاصة فيما يشار إليه بعلم النفس التربوي، باعتبار أن الورقة وإن كانت تشير في بعض أجزائها إلى بعض التراتيب العملية في التنشئة العاطفية للأطفال في منظومة الأسرة؛ إلا أنها ليست بصدد تقديم أطروحة متكاملة فيما يلي تلك التراتيب.

أولاً: مفاهيم الدراسة واطارها المرجعي:

وباتجاه مبتدأ رفيق لهذه الورقة يعرض الباحث بعض المفاهيم المحورية لهذه الدراسة:

- **مفهوم التربية الأسرية:**

ينتهي أصل كلمة تربية في اللغة العربية إلى معاني النمو والإنماء والإنشاء والزيادة والإصلاح، فقد ذكر الراغب في المفردات: [الرب في الأصلُ: التربية: وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً ، إلى حدّ التمام يقال: ربَّه وربَّاه وربَّبَه][1].

وأورد ابن منظور في لسان العرب : تربيه وأرتبه وربَّاه تربيةً : أحسن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولة، كان ابنه أو لم يكن. وأشار ابن منظور إلى أن العرب تقول : السحاب يُربُّ المطرَ بمعنى يجمعه وينميه، والمطر يَرُبُّ النبات والثرى يريدون أنه ينميه، وقولهم : ربَّ المعروفَ والصنيعةَ ، يَرُبُّها رَبًّا وربَّبها أي نمَّاها، وزادها ، وأتمها ، وأصلحها[2].

وذكر البيضاوي في تفسيره : الربُّ في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصف به تعالى للمبالغة.

أما (التربية) في التداول الاصطلاحي فهناك طائفة من التعريفات المتباينة حول المفهوم المراد منها، وهذا التباين يصدر في المقام الأول عن تغاير في الأسس الفلسفية بين مختلف مدارس وتيارات التربية، وهو بذلك خلاف ممتد ومتسع بحيث لا يمكن المقاربة بين تياراته بحال من الأحوال.

بيد أننا نستطيع هنا أن نشير بصفة عامة إلى أن كلمة تربية في معناها الاصطلاحي تشير إلى نظام اجتماعي يحدد الأثر الفعال للأسرة والمدرسة والمجتمع في تنمية النشء من النواحي الجسمية والعقلية والقيمية حتى يمكن للفرد أن يحيا حياة سوية في البيئة التي يعيش فيها.

---

* أستاذ مشارك بجامعة الخرطوم – قسم الفلسفة.

[1] الأصفهاني، أبو القاسم الحسين : المفردات ، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة وتاريخها (بدون) ص 79.

[2] ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم: لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، الطبعة وتاريخها (بدون)، 3 / 1546.

فالتربية تغدو بذلك عملية عامة لتكييف الفرد ليتامشى ويتلاءم مع تيار الحضارة التي يعيش فيه، وبهذا نستطيع أن نرى أن التربية أضحت عملية خارجية يقوم بها المجتمع لتنشئة الأفراد ليسايروا المستوى الحضاري العام[3] .

و تتحقق وظيفة التربية في طائفة من العمليات ذات الأهمية الفائقة في بناء المجتمع وتطويره، فلا غرو أن يتم النظر إليها بحسبانها ضرورة ملحة لأي مجتمع على تباين موقعه الحضاري؛ فوظيفة التربية تبدو أقرب إلى التمحور حول صناعة الإنسان وتشكيله وفق تصورات معينة لمجتمع ما حتى يستطيع الأفراد في ذلك المجتمع اكتساب سائر المهارات والاتجاهات المرضي عنها، ويستمدوا أنماط السلوك التي تيسر لهم التعامل مع البيئة الاجتماعية التي ينشأون فيها.

وتبدو التربية وفق هذا السياق كنظام اجتماعي تتبادل فيه عدة منظومات مجتمعية -الأسرة ، المدرسة..-الجهود من أجل تهيئة الفرد للعيش بصورة تلائم التوجهات الحضارية لمجتمعه.

ويخلص الباحث إلى تعريف مفهوم التربية الأسرية بأنه "هو الجهد والدور الذي تقوم به الأسرة من أجل تهيئة الفرد وتنمية قدراته وملكاته الجسمية والعقلية والقيمية والنفسية وسائر الأبعاد التي تلوَّن وتشكل شخصيته ليعيش حياة ملائمة سوية في مجتمعه" ومن ثم نستطيع القول بأن التربية الأسرية تعد نمطاً من أنماط التربية؛ تقوم الأسرة فيه بالدور الأعظم في تهيئة الفرد وتشكيله بما يتلاءم مع بيئته الاجتماعية والحضارية.

- **مفهوم التنشئة العاطفية:**

يستخدم الباحث مفردة تنشئة في هذه الورقة للدلالة على رعاية الإنسان وتربيته منذ الصغر، فالتنشئة وإن كانت مستوعبة بغير جهة لمعاني التربية إلا أنها لا تستوفي كافة معاني كلمة التربية، بيد أن مفردة التنشئة أدق وألزم في الإشارة لفترة عمرية مبكرة تعد الأسبق في مراحل نمو الإنسان لذا جاءت الإشارة القرآنية إلى النشأة الأولى، ومن ثم فقد كان اختيار الدراسة لكلمة تنشئة لأننا بصدد مرحلة الطفولة وهي أبكر مراحل النمو الإنساني.

أما العاطفية ومصدرها[عطف] فتجيء في اللغة العربية لتستجمع حولها معاني الرحمة والبرّ والمودة والرقة والشفقة وحسن الخلق وسعة الفضل، ففي لسان العرب لابن منظور نقرأ: تعطَّف عليه أي وصله وبرّه، وتعطَّف على رَحِمِه بمعنى رقَّ له ، ورجلٌ عاطِفٌ وعطوف : عائد بفضله حَسَنُ الخُلُق، وعطفت عليه: أشفقتُ ، والعطوف من النساء: المحبة لزوجها، وأمراةٌ عطيف بمعنى هينة لينة ذلول مطواع لا كبر لها، وامرأة عطوف أي حانية على ولدها وكذلك رجل عطوف[4].

إن التنشئة العاطفية وفق هذا السياق نروم بها الإشارة إلى سائر مراحل وجوانب العملية التربوية التي تباشرها وتختص بها الأسرة من أجل تعزيز وتنمية قيم الرحمة والبر والحب والمودة وحسن الخلق وسعة الفضل وغيرها من المعاني التي تسجتمعها مفردة عطف.

---

[3] أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة وتاريخها (بدون) ، ص 127.

[4] ابن منظور: لسان العرب، مرجع سبق ذكره، 4 / 2996.

مفهوم الطفولة:

درجت الدراسات الحديثة على الإشارة إلى مراحل مسيرة الفرد الإنساني وفق عدد من الفترات، تعد مرحلة الطفولة أولى تلك الفترات والمراحل. وتعرف فترة الطفولة بأنها الحقبة الباكرة من حياة الإنسان التي تبدأ من ولادة الفرد وتستمر حتى مرحلة المراهقة.

وبصفة عامة فقد درجت الدراسات الحديثة على تقسيم فترة الطفولة إلى أربع مراحل[5]:

- مرحلة الولادة والرضاعة
- مرحلة الطفولة المبكرة التي تستمر من السنة الثانية وحتى السادسة.
- مرحلة الطفولة الوسطى وهي تستمر حتى العاشرة.
- مرحلة الطفولة المتأخرة وتشمل السنوات العمرية بين العاشرة وحتى الثانية عشر.

- **الإطار المرجعي للدراسة:**

تتعدد الاتجاهات والمدارس التربوية منذ عهود باكرة للفكر الإنساني ، وينعكس ذلك في تباين الغايات والأهداف والخصائص التربوية المقررة من قبل كلِ اتجاه وآخر، ولعل مرد التباين يعود في المقام الأول إلى الإختلاف حول التأسيس الفلسفي لكل مدرسة واتجاه؛ وهذا يستوجب بالضرورة من كل باحث في مجال التربية بيان المنظور الفلسفي والأسس المعرفية التي يستهدي بها.

وتستهدي المنهجية التربوية التي تعتمدها الدراسة في ترسم معالمها وبيان أسسها بمرجعية الوحي القرآني، فهي أطروحة تحاول ترسم معالم التربية الإسلامية؛ وفق رؤية مفادها أن الإسلام يقدم مرجعية ومنهجية تربوية ذات خصوصية ومغايرة لكل مدارس وتيارات التربية الأخري سواء في غاياتها أو أهدافها أو وسائلها.

ثانياً: الأسرة في الرؤية الإسلامية:

سبق أن أشارت الورقة إلى أن التربية الأسرية تعد نمطاً من أنماط التربية الأساسية، ولذا كان الاهتمام بالأسرة من المعالم الواضحة للدين الإسلامي، وهذا يقودنا للتقرير مباشرة بأن أهم ملامح عناية الإسلام بالتربية الأسرية ماثل في العناية الفائقة التي أولاها الإسلام لشأن الأسرة.

والنظام الإجتماعي في الإسلام ينشأ على أساس الأسرة، حيث تتواتر طائفة من آيات لقرآن الكريم في بيان المقومات والعوامل والأحكام الهادية والضابطة لبناء وتتنظيم وحماية تلك القاعدة لكي تؤدي دورها الأتم في تاسيس وبناء المجتمع.

وتتأسس الأسرة وفق الرؤية الإسلامية عبر رابطة الزواج، وهي الرابطة التي يتفرد الإسلام بتقديم إطار تأسيسي ونظري حولها مباين لكثير من الأطروحات الدينية والفلسفية، ففي المسيحية الخالصة لا يوجد أساس لمؤسسة الزواج؛ فقد

[5] أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة وتاريخها (بدون) ، ص 59. (بتصرف)

دعى السيد المسيح عليه السلام إلى العفة المطلقة: [لقد أمرتم بألا ترتكبوا فاحشة الزنا، وأقول لكم كل من ينظر منكم إلى أمراة بشهوة فقد زنى بها في قلبه][6].

ويقول بولس : [... إن غير المتزوجين معنيين بالرب كيف يرضونه، وأما المتزوجون فمعنيون بالدنيا، أي كيف يرضون زوجاتهم][7].

وهكذا فإن التعاليم المسيحية تنظر إلى الزواج باعتباره شر لا بد منه، وترى أن الزواج اختزال للكمال لا مناص منه، ومن الخير للرجل ألا يلمس امراة، ولكن حتى يتجنب الوقوع في الزنا فلا بد منه. فالزواج وفق هذا السياق ليس قائماً على أساس من مبدأ ولكنه حل فرضه واقعٌ ماثلٌ في تجنب ما هو أسوأ.

وربما كان من الأنسب هنا أن نستحضر بالإضافة إلى هذه الرؤية التاسيسية لمبدأ الزواج في المسيحية جانباً من الظروف التاريخية التي غشيت العهد الباكر من مسيرة الدين المسيحي، فهي ذات الظروف التي أوجدت نظام الرهبنة كاستجابة مباشرة لعهود من الاضطهاد والتنكيل بالمؤمنين، وبالتالي تضاءلت الفرص المتاحة لنشوء مؤسسة الأسرة لعدم وجود بيئة مهيأة لقيامها على الوجه الأتم في تلك الظروف.

ولن نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن الرؤية المسيحية أضعفت مؤسسة الأسرة في المجتمعات الغربية؛ ولا غرو أن تهاوت الأسرة بصورة ظاهرة وبينة في المجتمعات الغربية بحيث لم تقو على الصمود أمام التحولات الحضارية والثقافية التي اجتاحت تلك المجتمعات بينما ما زالت تحافظ على وجودها في كثير من المجتمعات الأخرى وخاصة المجتمعات الشرقية.

وهنا نقرأ لعلي عزت بيغوفيتش ينقل عن توليستوى : [لأن تعاليم المسيحية الخالصة لا يوجد فيها أساس لمؤسسة الزواج، فإن الشعوب في عالمنا المسيحي لا يعرفون كيف ينتمون إلى هذه المؤسسة. فهم يشعرون أنها مؤسسة غير مسيحية في جوهرها][8].

تلك ملاحظة سديدة صائبة إذ أننا نجد أن عرى الأسرة ما زالت قوية في مجتمعات مثل (اليابان) على الرغم من ما شهدته من نهضة حضارية، وذلك يعود إلى تجذر رؤية إيجابية تجاه مؤسسة الأسرة في الأديان والموروثات الشرقية عامة، مما أكسب التقاليد الإجتماعية مزيداً من التقديس للأسرة على خلاف الرؤية المسيحية.

من جهة أخرى فإن من ما زاد من تأكيد المنظور السالب للأسرة ومكانتها في المجتمع الغربي أن الموروث السابق للمسيحية لا يتوافر على رصيد إيجابي في نظرته تجاه الأسرة التي يمكن الاستعاضة عنها بمؤسسات أخرى، وذلك بيّن في نموذج دولة أسبرطة وتصور أفلاطون لمجتمعه الفاضل وهو ما لا يتاح هنا بسطه باستفاضة.

---

[6] العهد الجديد : انجيل متى (5 : 27 – 28) .

[7] العهد الجديد: (الكورنثيون) (7 : 38) .

[8] على عزت بيغوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، القاهرة ، دار النشر للجامعات، الطبعة الثانية 1997م، ص 363.

ولا ترى الفلسفات المادية في الزواج التقليدي سوى انه عملية إخضاع جنس للجنس الآخر؛ ولذلك تزخر تلك الفلسفات بالدعوة إلى ضرورة الانعتاق من هذا الخضوع بجعل العلاقة بين الجنسين تقوم على أساس مدني بحت عماده روح التراضي للتحرر من هذا الإخضاع.

اتساقاً مع ذلك تعلو دعاوى الحرية الجنسية الكاملة واباحة الجماع الجنسي الحر، كما تبرز مطالب عديدة بالحق في تكوين الأسر غير النمطية وهي في حقيقتها ليست بالشأن المستحدث بل هي إحياء لأنماط قديمة عرفها الأوربيون في تاريخهم السابق للمسيحية وفي العهود اليونانية.

أما في الإسلام فإن الزواج ينظر إليه على أنه توافق للفطرة وقاعدة التكوين للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافة والكون أجمعه، فالزواج اتساق مع أصل الخليقة، ومن ثم فإنه يدخل في إطار توافق الإنسان مع الطبيعة المسبحة الطائعة لله .. وتبدو هذه النظرة جلية واضحة ونحن نقرأ الآيات التالية:

قوله تعالي: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**] [الحجرات : 13].

قوله تعالي: (**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**] [الروم :21] .

هكذا فإن الزواج وفق نصوص القرآن الكريم لا يعد شراً لابد منه، بل تسمو به النظرة القرآنية لتجعل منه تلبية لنداء الفطرة العميقة المنبثة في أصل الكون وبين ثناياه وفي تكوين الأشياء كلها. ولئن كانت الفطرة تكشف عن جاذبية بين الذكر والأنثى على وجه الإطلاق؛ فإن الإسلام يسلك بهذه الفطرة باتجاه إقامة الأسرة لتكون المحضن الطيب والعش الحاني الدافئ للتربية الصالحة.

يمضي القرآن الكريم شوطاً أبعد في إسباغ العلو والسمو لهذه المؤسسة الاجتماعية عندما يجعل منها سنة من سنن الأنبياء والمرسلين **قوله تعالي:** (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**] [الرعد:38].

فالأسرة في رحابة التصور الإسلامي ليست ساحة لقضاء الإرب والحاجات البيولوجية والفسيولوجية فحسب، لكن الأزواج والأبناء والأحفاد وسائر مكونات الأسرة هي امتداد طبيعي للواقع الأجتماعي الذي هو حقل عبادة الله وطاعته، وهي الأرض البوار التي تعمل فيها النبوات بالسعي الصالح والغرس الطيب، ومن هنا لزم أن يكون هؤلاء الأنبياء جزءً طبيعياً لهذا الواقع الاجتماعي في مؤسساته ومنظوماته. ولا ينتقص أن يكون لهم أزواج وذرية من قدرهم ومقامهم وكمالاتهم بحالٍ من الأحوال قيامهم بواجب العبودية لله الواحد المتعال في بناء ورعاية أسرهم، بل هم حينها أدعى ليكونوا في مقام القدوة والأسوة للمؤمنين من بعدهم.

ومن ثم فإن منظومة الأسرة ينظر إليها في الإسلام باعتبارها نظاماً فطرياً متسقاً مع أصل الوجود والتكوين الإنساني... بل نظر إليه المسلمون باعتباره حقلاً من حقول العبادة والزرع الطيب، ومن هنا نستطيع أن نشير إلى أن النظام الإجتماعي الإسلامي نظام أسرة، ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها.

بيد أنه لا بد من ملاحظة أن الإسلام لا يتجاهل الجانب المدني في الزواج ، فرابطة الزوجية تماثل بأكثر من وجه سائر العقود المدنية بين الأفراد بحيث يراعى فيها ما يراعى في تلك العقود من تراضٍ بين الأطراف وقدرٍ وافٍ من حرية الإرادة وغير ذلك من مقومات العقود.

ومثلما يتاح في كافة العقود الناشئة من حرية الاختيار والرضى مساحةً لفصم تلك العقود وفسخها وفق إرادة المتعاقدين أو أحدهما؛ فإن الإسلام يجيز الخيار لفض هذه الرابطة دون أن يتضرر هذا الطرف او ذاك، وهذا ما يجعل الرؤية الإسلامية حول الطلاق أو الخلع أكثر واقعية من بعض المذاهب الدينية الأخرى التي ترى أن ما جمعه الرب لا يفرقه أحد، ومن ثم لا تتيح أي إمكانية لفصم رابطة الزوجية مما يوقع بعض الناس في عنت من البقاء في أطار علاقة ورابطة أضحت غير محببة بالنسبة له .

نخلص إلى أن الزواج في الإسلام يقوم على تلبية أشواق الفرد الروحية وحاجاته المادية، وهو يستند إلى إطار ديني وأخلاقي يتصف بالسمو والجلال؛ إذ ينظر إليه كرباط يتصف بالقداسة الدينية، ولكن هذه الرؤية المتشحة بالمعاني السامية المهيبة لا تنفي عنه كونه أيضاً معاملة مدنية يمكن للطرفين أن يتخليا عن تلك الرابطة متى ما أرادا ذلك طواعية ورغبة.

هذه الرؤية السامية التي يلف بها الإسلام مؤسسة الزواج تبدو غير متلائمة مع ما يطرحه الفقهاء في مباحثهم الفقهية حول الزواج، فعندما يقرأ المرء تعريف الفقهاء لماهية النكاح أو الزواج الوارد في عدد من كتب الفقه يلحظ بجلاء أن مقولات الفقهاء تنصرف نحو الاهتمام بجانب يبدو أقصر من بيان المفهوم القرآني للزواج في سموه ورقيه؛ فهناك طائفة من الفقهاء ما انفكت ترى الرابطة الزوجية مجرد دوران في فلك المتعة والتلذذ.

فالنكاح كما يعرفه بعضهم : [عقد يفيد ملك المتعة قصداً][9] ، ومعنى ملك المتعة اختصاص الرجل ببضع المرأة وسائر بدنها من حيث التلذذ، وعرَّفه آخرون بأنه: (عقد على مجرد متعة التلذذ)[10]، وهكذا لو مضيت مستعرضاً ومقارناً لسائر مقالات الفقهاء في التعريف بالنكاح فإنها لا تخرج عن هذه الدائرة الدنيا من درجات الترقي الوجودي الإنساني.

لهذا لم تزد قيمة المرأة في تفكير طائفة من المسلمين عن النظر إليها من هذا المنظور الضيق، فهي وفق هذا المنظور ليست سوي كائن حي محدث وجالب للمتعة واللذة، وهو ما فتح الباب أمام خطاب ديني متخلف ومجحف في آن واحد؛ تحولت المرأة من خلال ذلك الخطاب إلى مجرد وسيلة ،فأداة، فسلعة ليس إلا، وتلاشت معالم النظرة للمرأة بحسبانها إنسان يستوى مع الرجل في سموه وكرامته.

---

[9] عبد الرحمن الجزري : الفقه على المذاهب الأربعة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة (بدون) 1986م، 2 / 35 .

[10] المرجع السابق، 2 / 35 .

وسوف يتجلى لاحقاً في ثنايا هذه الورقة أن ذلك النمط من الخطاب الديني يمثل أكبر عائق أمام نشوء علاقات اجتماعية رحبة وطيدة، ويحول دون تنامي عاطفة دافئة فياضة في نطاق الأسر.

يبدو لي أن تمحور ذلك التعريف حول الرغبات الجنسية فحسب، وما تولد عنه من رؤية فقهية عمدت إلى تضخيم إحدى زوايا النظر إلى الزواج في إطاره كمعاملة مدنية وعجزت عن تلمس الأبعاد السامية الأخرى ، يبدو لي أن ذلك الفهم القاصر للانتقاص من الرؤية القرآنية التي تجعل علاقة الزوجية واحدة من آيات الله الكونية الكبرى.

إننا عندما نتأمل القرآن الكريم نجد أن الإشارة إلى الزواج تجيء في ثنايا إشارات الوحي نحو آيات الله في الكون والآفاق، وليس في آيات البيوع والعقود. فليس النكاح أو الزواج مجرد عقد أو وثيقة بين طرفين حول سلعة أو منفعة ما؛ نعم ينبغي أن يراعى في النكاح متطلبات العقود المدنية بايجاد مساحة الرضى والاختيار الحر، وذلك مطلوب من أجل تعزيز غاية الزواج ألا وهي المودة والرحمة.

إن غياب الرؤية التي تسمو بالرابطة الزوجية فوق متطلبات المتعة والتلذذ بالجسد والبدن واستحلال هذا أو ذاك منه؛ هي ما أدت بالكثير من الفقهاء إلى القول بإباحة كثير من أنماط وصور من الزواج تعد حين النظر إليها من جهة الفهم التقليدي للزواج بحسبانه صفقة بين طرفين؛ تعد تلك الأنماط والصور مستوفية لشروط العقد من باب النظر الظاهري لأحكام الزواج.

لكننا في حال إعمال مزيد من نظر حول تلك الأضرب من أنماط الزواج كزواج المسيار والمسفار وغير ذلك من حالات يجري الحديث عنها في واقعنا المعاصر، وتدقيقنا في مدى تحقيقها لمقاصد الدين السامية في احترام الذات الإنسانية، ومدى ملاءمتها لروح الدين الخالص؛ فإن نتيجة ذلك تقودنا للخلوص بأن تلك الصور والحالات تبدو قاصرة؛ بل تتجاوز ذلك لتبدو مدمرة لتلك المقاصد والغايات.

ثالثاً: القيم العاطفة لدى الأطفال:

للأسرة دور أساسي وهام في تعزيز وتنمية الوجدان السليم لدي الطفولة ؛ وذلك من خلال تهيئة الفرد منذ طفولته لقبول قيم الرحمة والبر والحب والمودة وحسن الخلق وسعة الفضل وغيرها من المعاني التي تسجتمعها مفردة عطف. فالأسرة هي المحضن الأول الذي يرعى الطفولة، وفي هذا المحضن والموئل ينمو الطفل روحياً وعقلياً وبدنياً، وعبر الأسرة تنساب نحو الفرد أولى دفقات العواطف والمشاعر الإنسانية الفياضة من حب ورحمة وحنان.

كما أن مرحلة الطفولة ينظر إليها بحسبانها فترة إعداد وتهيئة وتدريب للفرد الإنساني فيما يستقبل من أدوار ومهام ووظيفة في الحياة، ولما كانت وظيفة الإنسان ودوره في الحياة هو الأعظم، وفق ما تشير إليه سائر المعتقدات الروحية؛ فقد تطلب ذلك أن تمتد فترة تدريبه واعداده، ومن هنا كان الإنسان هو الكائن الذي تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى، ليتم إعداده على الوجه الأتم لمقابلة دوره ووظيفته في الحياة.

لا شك أن هذه الطفولة الممتدة على مدى من السنوات تستلزم التصاقاً أبوياً رفيقاً، ومن هنا كان تشديد الإسلام على اعتبار ألا بديل لدور الأسرة بأركانها جميعاً، فالأسرة هي المحضن الأساس لتربية الأطفال، ولا غرو أن تنتهي تجارب الإنسانية إلى الإقرار بفشل كافة المنظومات الأخرى في أن تنهض بديلاً للأسرة أو تحل عوضاً لها.

لأهمية دور الأسرة كمحضن أساس للتربية، فلابد من الوقوف عند تمتين البناء الأسري، فإذا أردنا للأسرة أن تؤدي دورها الأتم نحو التنشئة العاطفية بالنسبة للطفولة؛ فيجب أن نجعل من الأسرة المعنية بشأن تلك التنشئة بيئة ممتَّنة الأواصر قوية الوشائج والصلات، تجد النفوس فيها الحب والحنان وتفيض بين جنباتها المودة والإلفة والمحبة.

ليس ثمة خلاف في أن الأسرة غير المستقرة التي لا تهنأ بمشاعر التعاطف الإنساني ستكون عاجزة عن إكساب الطفل مشاعر المحبة والمودة، وهي المشاعر التي يحتاجها الطفل منذ يومه الأول وشعوره بالاكتفاء من تلك العواطف هو وحده ما يعزز احساسه بالحماية والأمن؛ بل على النقيض فإن الأسر مقطعة الأوصال ذات العلاقات المتوترة بين أفرادها تعد اكبر معوق للنمو العاطفي السليم، وأجدر بأن تنشئ أطفالاً مضطربين في عواطفهم ووجدانهم.

فيما سبق تمت الإشارة إلى أن التربية الأسرية تعد نمطاً من أنماط التربية الأساسية، وتعد الأسرة أولى الحلقات التربوية بالنسبة للفرد، ومن خلال الأسرة الصالحة يتم إعداد اللبنة الأولى في بناء المجتمع، لينشأ الطفل سوياً على ثلاثة أصعدة ذات أهمية قصوى أعني بدنياً وعقلياً ونفسياً؛ ومن هنا كان الاهتمام بالأسرة واحداً من أهم المعالم التربوية للدين الإسلامي في سبيل تنشئة الأفراد.

لعل أول ملامح عناية الإسلام بالأسرة ذلك التأسيس الفلسفي للأسرة كمنظومة اجتماعية تجيء ملبية لطبيعة تكوين الوجود ومحققة لمقاصد الفطرة، وهو ما سبق الإشارة إليه باستفاضة ، ومن بعد هذا التأسيس الفلسفي فإن التعاليم الإسلامية تتجه لواقع الحياة لتجعل من عاطفة المودة والرحمة عماداً لبناء الأسرة وغاية سامية لرابطة الزوجية، ففي أيات القرآن الكريم ما يشير بجلاء إلى أن ذلك المعنى (بناء الأسرة) يقوم على عاطفة المودة والسكينة والإلفة والرحمة **قوله تعالي: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**] [الروم : 21] .

إذن فإن غاية العلاقة السامية الماثلة في رابطة الزوجية هي تحقيق ذلك المنحي العاطفي ... وفي أدب النبوة ما يحض على ابتغاء ما يسلك بالمرء نحو تحقيق تلك العواطف الجياشة، فنقرأ في الحديث فيما يرويه مسلم في صحيحه، أن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام يحث أحد أصحابه وهو المغيرة بن شعبة حين أزمع الزواج وبناء علاقة زوجية مع امرأة، فيقول له المصطفى(ص): أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما.

وما سبق يشير بجلاء إلى فهم دقيق ونظر عميق وفيض من كنوز علم النبوة، فليس المطلوب مجرد الارتباط بعلاقة زوجية مع طرفٍ آخر بل الغاية استدامة الود والمحبة، وذلك لا يأتي إلا من خلال تتبع مقومات الارتياح النفسي والعاطفي تجاه الطرف الآخر، والنظر هو أول بشارات القبول والارتياح بين الناس عامة والمحبين خاصة لقد جاء في الأثر : خير نساءكم التي إذا نظر إليها زوجها سرته...

لقد أبان الإسلام النهج الأمثل في تكوين الأسرة فحث على أن يكون معيار القبول لطرفي الزواج قائماً على معيار الدين والأخلاق فالأدب النبوي يشير إلى أن المرأة تنكح لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظْفَر بذات الدين تربت يداك[11]، ودعوته الشريفة : إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير[12].

إن هذا الأدب النبوي الذي يعمد إلى جعل معيار الاختيار والتأسيس لبيت الزوجية قائماً على الدين وحسن الخلق يسلك ذات المنحى الإسلامي في اتجاه تهيئة الأسرة وغرس شجرتها على القيم والأخلاق لتغدو بين أيدينا مؤسسة تربوية توفر بيئة صالحة وقدوة طيبة للأطفال.

- **حاجة الطفل للشعور بالعاطفة الإيجابية تجاهه:**

لقد خلق الله الإنسان على هيئة سواء، قال الله تعالى : (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**] [التين : 4]، والمراد من التقويم الحسن هنا منصرف نحو معنى السواء الإنساني الذي يشمل الأبدان والوجدان... فلئن انصرف كثير من المفسرين إلى الإفاضة حول خلقة الإنسان السوية في مبناه وبدنه وخلقته، فإن الإنسان أيضاً مخلوق على سواء نفسياً ووجدانياً ، إذ تشير الدراسات النفسية إلى أن الإنسان يولد ولديه دوافع أو حاجات، وهي على نوعين: أولهما الدوافع أو الحاجات العضوية الداخلية وهي حاجات بيولوجية فسيولوجية تتعلق بإشباع حاجات الجسد، وهي موجودة لدي كل إنسان وإن اختلف مداها من فرد لآخر تبعاً لتكوينه البدني الموروث والمكتسب.

أما النوع الثاني فهو الحاجات النفسية والاجتماعية، وهي عبارة عن العمليات العقلية والعاطفية، وهي تتعلق بتوفير الشعور بالأمن والطمأنينة، وهذه دوافع مرنة بمعنى يمكن أن تتغير ويحل بعضها محل البعض إذ هي تخضع لشتى الظروف البيئية من حولنا من اجتماعية وثقافية.

وينظر إلى الحرمان من الحاجات النفسية والإجتماعية، أو وجود عوائق أمام توفر تلك الحاجات ينظر إليه بحسبانه تهديداً لشخصية الطفل ونموها النفسي السوي، إذ يؤدي إلى شعوره بعدم الأمن والطمأنينة، وكلما ازداد شعور الطفل بالحرمان من تلك الحاجات كلما تعرضت ذاته إلى الاضطراب، وامتلأت نفسه بمشاعر القلق والتوتر والاحباط، وأختلت أسس العلاقات الإنسانية مع محيطه.

لئن كنا ندرك أن الأطفال أقل قدرة على تحمل الحرمان من النوع الأول من الحاجات والدوافع؛ فإن ملاحظة الكثيرين لحقيقة أن طاقة الأطفال على تحمل تجربة الحرمان من مشاعر الحب والمودة والرحمة والطمأنينة لهي أيضاً طاقة محدودة، هذه الملاحظة ليست حاضرة لدي الكثيرين منا بذات الوضوح؛ لذلك يجتهد الأهل كثيراً في تلبية حاجات النوع الأول بينما يتم إهمال الحاجات العاطفية والإجتماعية، وهي حاجات ملحة وتقود تجربة الحرمان منها إلى حالة من القلق

---

[11] الإشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه في سنن ابن ماجه " باب تزويج ذات الدين " وكذا أورده مالك في الموطأ أبو داؤد والنسائي وأحمد في مسنده.

[12] الإشارة إلى حديث أبي هريرة في سنن الترمذي وابن ماجه وغيرهما.

والتوتر اللذان يؤديان بدورهما إلى نشوء السلوك المضطرب لدى الطفل، وكل ذلك اضطراب في شخصية الطفل ربما ما قاد إلي بعض أنماط السلوك المنحرف.

رابعاً:الأدب النبوي في التنشئة العاطفية من خلال الأسرة والمجتمع:

لقد نهضت سيرة المصطفى (ص) نموذجاً في بيان أهمية سيادة روح المودة والمحبة في الأسرة حتى يتهيأ لها أن تفيض بأندى المشاعر والقيم الحانية لمن يستظل بهذه الأسرة من أطفال.

فقد كان عليه أفضل الصلاة والسلام في بيوته وبين زوجاته يعمر تلك الحجرات المتواضعة بالمودة والمحبة اللامتناهيتين، لا يمنعه من ذلك التدفق العاطفي ما ينوء به من مهام عظيمة ومسؤوليات جسيمة، ولأن ولايته صلى الله عليه وسلم تتجاوز نطاق أسرته وزوجاته لتشمل جميع مجتمع المؤمنين فقد كان قدوة في إثراء وقائع المودة، وجعلها ظاهرة جلية للكافة؛ حتى يجعل من ذلك أدباً نبوياً تسير عليه الأمة من بعده.

تروي لنا كتب السنن ما كان يكنه للسيدة خديجة رضي الله عنها من وفاء ومودة حتى بعد وفاتها، فقد كان وفياً حفياً بذكراها، باراً بصويحباتها. وكان يلاطف السيدة عائشة رضي الله عنها، وحواراتهما معاً تعكس زوايا مدهشة في هذا الجانب، ومن ذلك أنها تروي عن نفسها لتذكر أن أول ما تعلمت من سور القرآن الكريم سورة طه فكانت إذ تقول: (**طه 1 مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**) إلا قال لها (ص): لا شقيت يا عائش.

كذلك نستحضرفي هذا المنحى اللطيف ما أورده البخاري من خبر ملاحظته لصيغة قسمها ما بين حالتي الرضى والغضب، وقولها جواباً عن ذلك: والله ما أهجر إلا أسمك ... وكان يلاعبها ويجعلها من ورائه وهو ينظر إلى الاحباش يلهون في مسجده، وكان يصلي قائماً ليله وهي بين يدي موضع سجوده.

وكان (ص)لا يجد حرجاً في إعلان محبته لها عندما يسأله سائل : أي الناس أحب إليك ؟ فيقول عائشة، ثم يلي ذلك أبوها ولا يقول أبا بكر بل ينسبه إلى أبوته لها.

وكان إذا شربت السيدة عائشة رضي الله عنها من الإناء أمسكه ووضع فمه في موضع فمها فشرب، بل كان يمسك العظم الذي به اللحم بعد أن تأكل عائشة، فيضعه في موضع فمه.

كما تشير المرويات في السيرة النبوية أنه كان يبعث بالهدايا إلى زوجاته استمالة لقلوبهن فيروق لكل واحدة منهن الشعور بأن لها موقع الصدارة في قلبه، وقد كانت له مع كل واحدة منهن علاقة مودة ذات نكهة خاصة، ولعل حواراته المروية مع عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب وغيرهن من أمهات المؤمنين تكشف عن جوانب من هذه الرقة والعاطفة.

وهو صلوات الله وسلامه عليه إذ ينهج ذلك السلوك الاجتماعي السامي يدرك أثر الهدية في ترقيق القلوب وتطييب الخواطر، ولذلك يروم أن يكون ذلك أدباً مشاعاً في المجتمع فيدعو المسلمين إلى تمتين الصلات الطيبة بينهم فيقول : تهادوا تحابوا؛ ولعل المرء يعجب في أن يجد أدب الهدية في ثقافتنا يشهد بواراً بيناً، فلا تجد هذا الأدب حاضراً في أسرنا، فربما مضت السنوات ولا يتهادى الرجل وزوجته أو الأب وأبناءه، وليس ذلك لضيق ذات اليد وإنما لضعف وجفاف أدب التهادي،

لكنك تدرك عظمة النبوة عندما تجد شعوباً في زماننا الحاضر أخذوا بهذا الأدب النبوي الرفيع، بل طفقوا يختلقون له المناسبات والسوانح إلتماساً لتقوية عري المحبة والوصال، وما زال من علمائنا الأجلاء من يجادل في حكم إهداء الورود للمريض أو غيره .

ولم يقتصر الأمر على زواجاته (ص) فما بين أم أيمن وأم حرام والشفاء وغيرهما من أفاضل نساء الصحابة اللواتي كان لهن نصيب من مودته وعاطفته أمثلة واضحة ، إذ كان يصلهن ويبرهن ويجالسهن وينال في بيوتهن من الراحة من عناء إدارة شؤون الأمة.

لعل الكثير من المرويات في هذا الجانب من هديه مع النساء زوجة كانت أو ابنة أو صحابية أو جارية؛ تسوق المرء باتجاه يجعله يطمئن إلى الموقف الذي اتخذه الشيخ محمد الغزالي في إنكاره لطائفة من المرويات المنسوبة إلى النبوة الطاهرة تشير لانتقاص إنسانية المرآة كحديث قطع الصلاة وعدها مع تلك الدواب، كيف وقد كانت المرآة حاضرة في حياته صلى الله عليه وسلم حضوراً مفعماً بالمساندة والوفاء لها والعطف .

كذلك فقد كان للطفولة متسع من عطفه وحنانه، فقد تواترت المرويات في سنته في مسح رؤوس أطفال المسلمين والدعاء لهم حتى أضحت هذه سنة نبوية أدركها صحابته فكانوا يأتون بالأطفال فيدعو لهم بالبركة، وكان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم ويدعو لهم بالخير، فقد كان عليه أفضل الصلاة والسلام كما يقول أنس بن مالك أرحم الناس بالصبيان والعيال.

روي الشيخان في صحيحيهما أنه قدم ناس من الأعراب على رسول الله فقالوا : أتقبلون صبيانكم؟ فقال : نعم، قالوا : والله لا ما نقبل ، فقال: أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة.

ويورد أصحاب الأثر حول عاطفة المصطفى (ص)تجاه الطفولة طائفة من المرويات، فكان يضاحكهم ويمازحهم ويختار لهم أرق الأسماء، ويروى عنه أنه كان يضع في فمه قليلاً من الماء البارد ويمجه في وجه الحسن فيضحك. وربما صلى بالناس وهو يحمل أمامة بنت زينب رضى الله عنها، وهكذا فقد كانت مدرسة النبوة ينبوعاً للرحمة والمودة الصادقة نحو الطفولة.

هذه هي قامة النبوة الصادقة، فهو صلوات الله وسلامه عليه لا تشغله شؤون الأمة ورعايتهما سلماً وحرباً عن إعمار بيته بالمشاعر الدافئة، وهو يفيض بهذه العواطف وتتدفق مشاعره الحانية نحو نسائه ونساء المؤمنين كافة وأطفالهم، وإذا كان هو بمقام من يهب المودة والحب والحنان في تلك الدائرة الممتدة فلا أقل من أن نقتدي به فنمنح مودتنا ونغمر من يلينا بتلك العاطفة.

إذن فالنبي (ص) يهدينا إلى أقرب السبل لتعزيز قيم المحبة في النفوس، ذلك السبيل هو أن نمنح الجميع محبتنا ونشعرهم بمودتنا تجاههم، فعلى قدر ما نبادل أزواجنا من المودة والرحمة على قدر ما يتهيأ لأطفالنا محضن دافيء بالمشاعر شجي بالعواطف ، وعلى قدر ما نعطي أبناءنا من الحب والحنان على قدر ما نضمن نقاء سرائرهم وسمو أرواحهم .

خامساً: واقع التنشئة العاطفية للأطفال في الأسرة السودانية:

لعل ما يسود مجتمعنا السوداني من موروث اجتماعي وثقافي متراكم وكثيف لا يوفر مرجعية محفزة لقيام بيئة أسرية ذات علاقات عاطفية سلسة، فهناك موروث اجتماعي ثقافي ثقيل يكبل الأسرة ويحول دون نهضتها بدورها الأتم في التنشئة العاطفية للطفولة.

لعلنا نبين عن هذا الموقف فنقول أن مجتمعنا السوداني من خلال موروثاته يرسخ لموقف أساسي وجذري تتأسس عليه الكثير من سلوكياتنا ومواقفنا تجاه أنفسنا وتجاه الاخرين من حولنا؛ إننا إزاء موقف يجعل من كبت العواطف هو السلوك الأمثل.

حتى ربما تجاوزت تربيتنا في كثير من مجتمعاتنا ذلك الموقف إلى اعتبار التصريح أو التعبير عن تلك العواطف بأي لون من الألوان ، وعلى أي درجة من الدرجات ضرباً من ضرُوب السلوك غير المقبول اجتماعياً من طرف الفرد أياً كان رجلاً أو أمراة، إذ يعد في حق هذا انتقاص لرجولته، وفي حق تلك انتهاك لحيائها؛ ولا نستطيع أن نبعد كثيراً من كبد الحقيقة إن انتهينا إلى التقرير بأن نمط تنشئتنا الاجتماعية يرسخ لحالة من الحرمان فالركود ليكون الحال مجدباً على الصعيد العاطفي.

ولئن كانت التنشئة العاطفية تعد من أهم الدعائم التي تقوم عليها التربية الأسرية؛ فإن تلك الأهمية تبدو فائقة وذات تأثير فعال إذا تنبهنا إلى أن آليات التربية الأسرية كالقدوة الصالحة وغيرها تبدو عديمة الفعالية في غياب عاطفة المودة والرحمة في الأسرة، تلك العاطفة التي تنبع أولاً من الأبوين ثم تتمدد لتنسج شبكة متصلة بين كافة أفراد الأسرة.

فما يعين الطفل على قبول القيم والتشبع بها ويحقق نموه الخلقي والعاطفي؛ هو ما يشعر به من عطف وحنان تجاه كل محيط أسرته ، ولعل ذلك يقودنا إلى التنبيه إلى أن المحبة هي المدخل إلى التربية وفق الرؤية الإسلامية، وهي المفتاح الحقيقي لكل أنماط القيم والاتجاهات التي يكتسبها الطفل الناشئ ، ولا غرو أن غدت المحبة عند أهل الذوق من المسلمين هي منتهى كل العلاقات التي ينشئها الإنسان باتجاه ترقيه وسموه الروحي.

كذلك تبدو أهمية التنشئة العاطفية ذات أهمية قصوى إذا تنبهنا إلى أن مبدأ القدوة الطيبة وهو من اهم آليات التربية الأسرية يغدو عديم الفاعلية أو يضعف تأثيره في حال إعماله في بيئة فقيرة عاطفياً، ولكن الأدهى من ذلك عندما تتحول آلية الثواب والعقاب في مثل هذه البيئة إلى أدوات ذات أثر سالب بل ومدمر للشخصية السوية .

في اتجاه البحث عن منشأ ذلك الموقف الراسخ والمؤسِس لحالة الركود العاطفي والجمود الوجداني من جهة ، واستبعاد العامل العاطفي أو دخول العاطفة على استحياء في تنشئتنا لأطفالنا وفي سائر مراحل الحياة في الأسرة السودانية من الجهة الأخرى؛ ولعل المرء يلحظ أن مفردات الخطاب اليومي تكاد تخلو منها عبارات التعاطف الوجداني، مما هو وافر بل وفير في لغات كثير من الشعوب الأخرى من حولنا، ولا شك ان تلك الحالة تنعكس في طبيعة وماهية ومقدار ما نمطر به أطفالنا من عطف وحنان ومودة ؛ فلنقلب سوياً طائفة من المظان التي يمكننا أن نرجع إليها تلك الحالة السودانية:

1. طبيعة التجربة الدينية على مستوى المجتمع السوداني:

أود هنا أن أشير إلى أن استيعاب المجتمع السوداني لحقيقة الدين أو ما أسميه التجربة الدينية في مستواها الجمعي لدى قطاعات غالبة من السودانيين تميل في أكثر مناحيها إلى تغليب الجانب العملي من الدين، بمعنى أن الأداء الظاهر لجملة شعائر التعبد يأخذ المساحة العظمى في تكوين فكرة الدين لدى قطاعات واسعة.

وليس أدل على ذلك من أن التصوف السوداني لم ينفتح على مدارس وتيارات أصحاب الذوق الصوفي إلا بمقدار طفيف وفي عهود متاخرة، فلم يعنى متصوفة السودان كثيراً بمسائل الحب والعشق الإلهي وكثير منهم ما أدرك شيئاً من مثل هذه المواهب، بل غلب على تصوفهم جانب السلوك والعمل من تزهد وتقشف وخلوة ودعوة وتعليم.

لقد أضعفت طبيعة التجربة الدينية تلك حالة النظر إلى الدين كعلاقة محبة وحب وعشق وولـه، وهذه طبيعة علائقية تتجاوز في حال ترسخها ونضوجها وفي كثير من زواياها الحالة الظاهرة الطقوسية للعبادة والشعيرة، لتغوص بالمتدين مباشرة فيما وراء ذلك، وهنا يقوم صدق الوجدان ولوعة المشاعر مقام حركات البدن.

تبدو أهمية التفكر في الدين كعلاقة حب ذات أثر مباشر في ماهية حضور الذات الإلهية في مكنون الإنسان، ففي حال فقر تلك العلاقة الوجدانية لن يكون تصورنا لطبيعة الذات الإلهية إلا كتلك التي عبر عنها اليهود في كتبهم، أعني صورة الإله الجبار المنتقم الذي يبتلي شعبه وإلى غير ذلك مما يحتشد به العهد القديم من أوصاف للذات الإلهية؛ وأتمنى لو أتيح لي سانحة أخرى لأستفيض في هذه المسألة فهي جديرة بالبحث والنقاش، وتبدو أهميتها بالنسبة لي من حيث محاولة الإجابة على السؤال الآتي: هل نحن نمتلك تصور القرآن الكريم حول الذات الإلهية، ذلك الإله الذي عبده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورغب الناس في تملقه والتودد إليه؟ أم أن ما هو راكز في أفهامنا ليس سوى صورة الإله الذي صوره العهد القديم وخُوف به بنو إسرائيل؟

أعود فأقول إن من شأن مثل هذه التجربة الدينية أن عظمت دائرة الأمر والنهي الديني، وأضحى المأمور به والمنهي عنه يمثل حضوراً فاعلاً وطاغياً في تشكيل القيم الأخلاقية والاجتماعية، وكنتيجة مباشرة لذلك فإنه وفي كثير من الأحيان عندما تتضاءل دائرة المعرفة والإلمام بمقاصد وروح النصوص الدينية تلبس تلك التعاليم الدينية لبوس العادة والتقليد فتتحول بدورها كثيراً من العادات والتقاليد لتصبح جزءً من منظومة الأمر والنهي الديني، وهي ليست كذلك بحال من الأحوال.

أخلص هنا إلى القول بأن تجربتنا الدينية في نطاقها الأعم يكمن في جوهرها واحد من أهم مسببات فقرنا العاطفي والوجداني .

2. الحزن غالب في تصورنا لحقيقة الدين:

هذه النقطة موصولة بسابقتها وبدت لي رديف لها، ولكن تم إفرادها هنا لأنها تبدو من الأهمية بمكان، بحيث تستحق ذلك الإفراد ، يلاحظ المرء إننا كثيراً ما نجعل من الحزن رديف وملازم للحالة الدينية، وحتى نتحدث عن موسيقى دينية فإنها في الغالب ذات جرس حزين، وفق هذا السياق فإن الفرح وما يرافقه من مشاعر ينبغي أن تكون حالة عابرة واستثناء؛ ألا

ترى أننا كثيراً عندما يستغرقنا الضحك سرعان ما نستغفر الله ونسأله أن يجعل عاقبة ضحكنا خيراً، هناك إحساس عميق يغوص في أعماقنا أن الضحك والسرور مما يجب الاستغفار منه.

وهكذا ترسخ لدينا أن الفرد المتدين حقاً يعني الحاضر الحزن، وربما بدا للكثيرين أن ذلك مفهوم يستهدي بما جاء في الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه كان دائم الحزن، وهي إشارة إلى استحضاره للحساب والسؤال بين يدي ربه.

يقيني أن حالة الحزن النبوية تلك هي قمة سمو المشاعر الإنسانية وصدقها، وليس تلك الحالة من انقباض النفس وتجهمها، فالحزن هو أصدق المشاعر الإنسانية .

إن الحالة الدينية ينبغي أن تستجيش صدق المشاعر وليس ادعاء الحزن الكذوب، ولا أكاد أفهم من الذي رسم لنا تلك الصورة النمطية للنبي المكتئب المتجهم ، وهكذا مضى طائفة من أدعياء العلم في الأخذ بسنة التجهم والعبوس ، وهم يرون أن تلك كانت حالته (ص)، ومثل هذا الفهم يورث في المرء عجزاً من أن يلاطف زوجته أو يوادد أبناءه فضلاً عن ما يلي ذلك من دائرة أوسع.

3. الطبيعة التلقينية في التربية:

ولما كان نصيب العاطفة قليل في تشكيل رؤيتنا للدين؛ فقد أضحى الدين مثل لائحة من الأوامر والنواهي . وليس ثمة حاجة إلى المشاعر والعواطف بل يعمد إلى مجرد التلقين لتلك القائمة.

لعلي أشير هنا إلى أن الطبيعة التلقينية التي نسلكها في محاولة إكساب أولادنا القيم لا تساعد على تنشئة عاطفية سليمة لهم. حتى أننا بهذه النزعة التلقينية نغفل عن حقيقة ما نرومه من غايات ومقاصد من وراء تلك العملية التلقينية.

فإذا تأملنا مثلاً لماذا نجتهد كثيراً في أن نلقن أطفالنا سور قصار المفصل؟ هل نحن نلقنها لهم لمجرد أنها قصيرة وسهلة الحفظ؟ وهل مما تتناوله هذه السور من مواضيع وقضايا تناسب وجدانهم السليم ومشاعرهم المترعة بالحب والحنان؟ ما القصد من أن نلقي في روع الطفل تلك الآيات القوية التي خوطب بها عتاة مشركي مكة ؟ ولماذا لا يكن أول ما يقابله الطفل من الآيات هو مطالع سورة الرحمن مثلاً أو آل عمران أوغيرها...

4. النظرة الدونية للمرأة في الخطاب الديني التقليدي:

لا يظن بحال من الأحوال نشوء عاطفة أسرية في غياب علاقات مستقرة في الأسرة، وضمان هذا الاستقرار وتطويره في اتجاه تعزيز روابط ووشائج عاطفية تتطلب قدر وافراً ووافياً من الاحترام المتبادل بين كافة أفراد الأسرة الواحدة، ولهذا فإن كافة أنواع التقليل في مواجهة أي عضو في الأسرة تؤدي إلى احساس ذلك العضو بالحرمان من الحنان والتقدير.

لا شك أن المجتمع ووفق تراكمات اجتماعية وثقافية وتحت تأثير بعض المفاهيم الدينية الخاطئة يحمل قدراً ليس باليسير من انتقاص المرأة، وثمة إرث وفير لا يمكن تجاهله يضخ هذه النظرة الدونية تجاه المرأة منذ ميلادها، وتمضي تلك النظرة مصاحبة وملازمة لها في سائر مراحل حياتها.

هذا الركام من الموروث الثقافي والاجتماعي في اضطهاده للمرأة والتقليل من قدرها لا يعين على ايجاد رابطة أسرية مستقرة ومعافاة، بل ينتهي إلى تعطيل أهم رافد للعاطفة داخل الأسرة مما يؤدي لمنظومة أسرية ليس لديها القدرة على تنشئة عاطفية لاطفالها.

5. المفاضلة بين الأبناء:

إن التفرقة بين الأبناء سواء بسبب النوع كتفضيل الأولاد على البنات أو الترتيب في الميلاد أو لأي ذريعة أخرى لا يوفر أرضية صالحة لتنشئة عاطفية سليمة للأطفال في الأسرة، ولهذا كان الأدب النبوي في النهي عن تلك التفرقة ومراعاة العدل بين الأبناء جميعاً. وهو أمرجلي ظاهر لا يحتاج إلى كثير بيان، ويسرد فيه أهل الاختصاص كثير من الموجهات والنصائح .

6. اختفاء مفهوم الأدب والسماحة في التعامل اليومي:

ينظر المرء إلى المكتبة الإسلامية ليجدها غنية وثرة بما يعرف بكتب الأذكار، أي تلك المؤلفات التي كتبها طائفة من العلماء كالنووي والشوكاني وابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهم، وقد كان مقصد هؤلاء الأفاضل من العلماء تقصي ما كان من ذكره صلي الله عليه وسلم وهو يباشر شؤون حياته اليومية.

لعل أول ما يعن في خاطري من تلك الملاحظة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سلوكه كله يقوم على الترفق والتروي والتأني والتمهل، فليس ثمة عجلة أو طيش أو خرق؛ فإذا كان لكل فعل دعاء وذكر يسبقه مما يعني أن ثمة تهيئة وتوطئة لكل فعل.

بيد أن الغاية ليست أن نحفظ تلك الأقوال ونرددها بل الغاية أن تتأسى بتلك الهالة النبوية من الأدب الرفيع، عندها سوف نكتشف أن عبارات المجاملة والثناء والشكر والعرفان والتعبير عن الحب والمودة والتوطئة للطلب بعبارات رقيقة جميلة؛ كل أدب نبوي رفيع تنهض بإثباته شواهد كثيرة من المرويات، بل إن كثيراً مما قيل في أحاديث ما يعرف بالفضائل جاء في هذا السياق.

وكل ذلك أدب رفيع يعزز من علاقاتنا الأسرية وينمي روابطنا العاطفية، الكلمة الطيبة تضفي أجواء ندية على المحيط الإنساني ، ولعل فقرنا في هذا الجانب أظهر من أن يشار إليه، ويلحظ الكثيرون منا وقد خالطوا شعوباً دانية وقاصية كم أن لغة الخطاب اليومي في واقعنا السوداني جديبة في هذا المضمار.

7. غياب أدب الخصوصية من حياتنا الاجتماعية:

لعل آيتا الاستئذان الواردتين في سورة النور تنم عن أدب قرآني رفيع، إن تلك الآيتين في مقصدهما العام تنشآن بوضوح وجلاء مساحة من أدب الخصوصية في الأسرة الواحدة. ولعل اختفاء هذه المساحة من الخصوصية بين الأب والأم في أسرنا السودانية ينتقص من مساحة الإشباع العاطفي لديهما؛ مما ينعكس بدوره على قدرتهما على منح الأطفال الرعاية العاطفية.

8. إساءة فهم وتطبيق مبدأ الثواب والعقاب في التربية الأسرية:

ليس ثمة مبدأ من مبادئ التربية شغل المختصين مثل مبدأ الثواب والعقاب، فحوله طائفة من الدراسات التربوية والنفسية، ولا أود هنا الاستفاضة فيه إلا بقدر الإشارة إلى ما نحسه جميعاً من أن واقعنا السوداني بتقاليده الاجتماعية والثقافية لا يدرك مرامي وأبعاد مبدأ الثواب والعقاب، ومن ثم فإن إساءة تطبيق هذا المبدأ في واقعنا السوداني يساعد في ضعف العلاقات العاطفية داخل الأسرة .

الخاتمة:

حاولت هذه الورقة بسط رؤية كلية مرجعية حول التنشئة العاطفية للطفولة وتقديم قراءة نقدية لواقع تلك التنشئة في المجتمع السوداني بالنسبة إلى تلك الرؤية الكلية؛ وانطلقت الدراسة من تقديم بيان لمفاهيم الدراسة.

تقرر لدى الباحث أن النظام الإجتماعي الإسلامي نظام أسرة، ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها، وأن التعاليم الإسلامية تجعل من عاطفة المودة والرحمة عماداً لبناء الأسرة وغاية سامية لرابطة الزوجية، حيث أن بناء الأسرة يقوم على عاطفة المودة والسكينة والإلفة والرحمة، فغاية العلاقة السامية الماثلة في رابطة الزوجية هو تحقيق ذلك المنحي العاطفي ...

أشارت الورقة إلى أن الله عز وجل قد خلق الإنسان على هيئة سواء، وهذا التقويم الحسن السوي يشمل الأبدان والوجدان... و لكليهما دوافع وحاجات ، وهي حاجات موجودة لدى كل إنسان وإن اختلف مداها من فرد لآخر تبعاً لتكوينه البدني الموروث والمكتسب.

تناولت الدراسة عملية التنشئة العاطفية بحسبانها واحدة من أهم الدعائم التي تقوم عليها التربية الأسرية؛ حتى أننا نجد أن آليات التربية الأسرية كالقدوة الصالحة وغيرها تبدو عديمة الفعالية في غياب عاطفة المودة والرحمة في الأسرة، تلك العاطفة التي تنبع أولاً من الأبوين ثم تتمدد بين كافة أفراد الأسرة.

وتناولت الورقة جانباً من هدي النبوة في مجال تعزيز العاطفة لتخلص إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم يهدينا إلى أقرب السبل لتعزيز قيم المحبة في النفوس، ذلك السبيل هو أن نمنح الجميع محبتنا ونشعرهم بمودتنا تجاههم.

فعلى قدر ما يكون من المودة والرحمة من الأزواج ، وعلى قدر ما توفر للأبناء من الحب والحنان على قدر ما كان ذلك أدعى لنقاء سرائرهم وسمو أرواحهم .

وأردفت الورقة القول بأن ما يسود مجتمعنا السوداني من موروث اجتماعي وثقافي متراكم وكثيف لا يوفر مرجعية محفزة لقيام بيئة أسرية ذات علاقات عاطفية سلسة، فهناك موروث اجتماعي ثقافي ثقيل يكبل الأسرة ويحول دون نهضتها بدورها الأتم في التنشئة العاطفية للطفولة.

لعلنا نبين عن هذا الموقف فنقول أن مجتمعنا السوداني من خلال موروثاته يرسخ لموقف أساسي وجذري تتأسس عليه الكثير من سلوكياتنا ومواقفنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين من حولنا؛ إننا إزاء موقف يجعل من كبت العواطف هو السلوك الأمثل.

لقد سعت الورقة للبحث في منشأ ذلك الموقف الراسخ والمؤسِس لحالة الركود والجمود الوجداني، لتنتهي إلى ذكر طائفة من الأسباب والعوامل.

المصادر :

1- القرآن الكريم.

2- السنن و كتب الحديث: موطأ مالك سنن ابن ماجه . سنن أبي داؤد .سنن النسائي ومسند الإمام أحمد. .سنن الترمذي.

3- الكتاب المقدس العهد الجديد.

المراجع:

1- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين : المفردات ، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة وتاريخها (بدون).

2- بدوي، أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة وتاريخها (بدون).

3- بيغوفيتش، على عزت: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، القاهرة ، دار النشر للجامعات، الطبعة الثانية 1997م.

4- الجزري، عبد الرحمن: الفقه على المذاهب الأربعة، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة (بدون) 1986م.

5- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم: لسان العرب، القاهرة، دار المعارف، الطبعة وتاريخها .